

الزج بالمغرب في الحرب العالمية الأولى

نوال مترزكي¹

لم يكد يمضي على احتلال المغرب، وفرض معاهدة الحماية (30 مارس 1912)، حوالي سنتين، حتى اندلعت الحرب العالمية الأولى سنة 1914. فكان الحدث أكبر الصعوبات التي واجهت أول مقيم فرنسي بالمغرب الجنرال ليوطي. ذلك أن أجواء الحرب وضعت مصير المغرب، حديث العهد بالكتلة الأفريقية الفرنسية على المحك. وشكلت تهديدا مباشرا للوجود الفرنسي بهذا البلد.

لقد جندت فرنسا كل مستعمراتها، إلى جانبها في الحرب. فكيف تعاملت مع المغرب، الذي كان في وضع نظام حماية، وليس استعمارا مباشرا؟ والذي كان ما يزال محتفظا ببعض مظاهر السيادة المتجلية في حق السلطان في المصادقة على ما يتخذ من قرارات. وكيف كان موقف الحكومة الفرنسية إزاء الاحتفاظ بالمغرب؟ وفكرة ضرورة الدفاع عن الوطن الأم؟ وما مجمل أفكار وسياسة المقيم العام ليوطي التي مزجت بين الفكرتين؟.

إنها الأسئلة التي تقترح هذه المداخلة تتبعها، لتسليط بعض الضوء على جزء من العلاقة بين المغرب وفرنسا خلال الحرب العالمية الأولى.

I - الزج بالمغرب في الحرب العالمية الأولى

كانت بوادر وعلامات اندلاع الحرب وراء استعدادات عسكرية فرنسية لاتقاء أي هجوم ألماني، وللرد عليه في حينه. وقد طرحت هذه الاستعدادات قضية الجنود المرابطين بالمستعمرات والمحميات الفرنسية، وضرورة الاستعانة بها، واستقدام فيالق منها للدفاع عن فرنسا.

كان المغرب ضمن هذا المخطط، إلا أن أوضاع الفرنسيين به، كانت ما تزال بعيدة عن الاستقرار، وما تزال تهدد بإمكانية أن تذهب كل مجهودات الاحتلال الفرنسي سدى. وهو الواقع الذي أربك الفرنسيين ووزع تصوراتهم ومواقفهم، بين توجه وضع همه الأساس هو الدفاع عن الدار أي فرنسا، قبل التفكير في الاحتفاظ أو عدم الاحتفاظ بالمغرب، وتوجه لم يهمل ضرورة الدفاع عن فرنسا، ولم يكن في نفس الآن مستعدا للتفريط في المغرب، وفي ضرورة استثمار المجهودات التي بذلت من أجل احتلاله.

¹ - أستاذة التاريخ المعاصر بكلية آداب عين الشق، الدار البيضاء

كان المسؤولون الفرنسيون في باريس، بوزارة الخارجية، ووزارة الدفاع، هم أصحاب الموقف والتوجه الأول، أما الموقف الثاني فكان على رأس أصحابه، والمنادين به، المقيم العام الجنرال ليوطي.

ولتوضيح هذا الأمر، نشير إلى أن ممثل فرنسا بالمغرب تلقى قبل أيام من اندلاع الحرب، برقيتين -بالصدفة أو غيرها- نفس التاريخ (27 يوليو 1914)، حملت البرقية الأولى توقيع ألبير فيري من وزارة الخارجية، وحملت الثانية توقيع وزير الدفاع ميسيمي.

من يطلع على مضمون البرقيتين لا يرى فرقا في القصد، إذ نصت أوامر برقية وزارة الخارجية على:

- تقليص المناطق التي شملها الغزو الفرنسي، وتم إخضاعها.

- التراجع نحو المدن والموانئ الساحلية.

- الاحتفاظ بالخط الرابط بين مدن: القنيطرة وفاس ووجدة.

- توقيف سياسة التوسع مؤقتا.

- الاهتمام بالأجانب والفرنسيين ونقلهم إلى المدن الموانئ¹.

أما أوامر وزير الدفاع، فركزت على ضرورة إرسال فيالق القناصة، والزواوي، والمشاة، وفرق القناصة الجزائريين، والتونسيين، الموجودين بالمغرب إلى فرنسا للدفاع عن الوطن الأم².

وإذا كان مضمون البرقيتين/الأوامر، واضحة فرضتها ظروف الحرب، وسياسة الأولويات فإن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة للمقيم العام ليوطي.

لقد بدا في تنفيذ مضمون البرقية الأولى، لممثل فرنسا بالمغرب ضياعا "للمغرب الفتى"، ورأى في تنفيذ مضمون البرقية الثانية، نوعا من فتح المجال للقبائل المغربية، للانقضاض على ما تبقى من الوجود الفرنسي. وباختصار، كان ليوطي غير مستعد للتخلي عن المغرب وغير مستعد لإضاعة حصد النتائج التي أحرزتها نجاحاته الأولى.

ومن أجل الوصول إلى قرار يتم فيه تقاسم المسؤوليات، جمع ليوطي أركان حربه بالمغرب، وجنرالاته الكبار: Henrys. Gourouy. Brulard. Peltier. لتدارس ما وجب اتخاذه من إجراءات في حالة تراجع الجيوش الاحتلال الفرنسي عن مناطق زيان، مراکش، أكادير، وسواحل جنوب الدار البيضاء. فكان ان اجمع هؤلاء على أنه "لا يمكنهم الاحتفاظ بالدار البيضاء إلا إذا ظلت مراکش تحت السيطرة الفرنسية". مفسرين ذلك، بأنه وفي "حالة الانسحاب منها، سيفتح المجال لثورات القبائل فيضطر

¹ - AMV : 3H361 : dépêche n° 159/11 . MAE. à Lyautey 27 juillet 1914

² - AMV : 3H 361 , dépêche n° 259/11 . ministère de la guerre à R G Paris 27 juillet 1914 .

الفرنسيون إلى التراجع نحو الشاوية". وبنفس التأكيد والمنطق، رأى جنرالات ليوطي أنهم "لا يستطيعون الاحتفاظ بمنطقة مكناس إلا إذا كانت منطقة تادلة تحت سيطرتهم"¹.

ومن خلال هذا الطرح والمبررات، والتفسيرات التي قدمت حوله، انتهى الاجتماع بخلاصات، اتفقت مع وجهة نظر المقيم العام، المركزة على ضرورة الاحتفاظ بالوجود الفرنسي بالمغرب "بأي ثمن"، ورغم الظروف التي تعيشها فرنسا بسبب أجواء الحرب.

وبناء على قرار اجتماع ليوطي وجنرالاته، وعكس ما أمرته به برقية الخارجية الفرنسية، وبرقية وزارة الدفاع، شرع ليوطي في إفراغ السواحل من الجنود، والدفع بالقوات الموجودة تحت إمرته نحو الداخل. لقد كان مؤمنا بضرورة وجوب "المحافظة على المظهر الخارجي للمناطق المحتلة"، حتى لا تشعر القبائل بحالة تراجع القوة الفرنسية بالمغرب، وهو إيمان نابع من اعتقاده بأن "التخلي عن أي شبر من المناطق التي أصبحت تحت سيطرة فرنسا، سيهدم -كما قال- "ما بنيناه في المغرب". وسيفرض من أجل حماية الموانئ من هجمات القبائل قوة عسكرية كبيرة. كان ليوطي واعيا بإقدامه على مخالفة أوامر باريس، إلا أنه، كان واعيا كذلك، بضرورة توضيح موقفه، وضرورة إلجائه لبوس المصلحة العامة. وفي هذا السياق جاءت برقيته إلى حكومة باريس تقول: "سأحتفظ بالمغرب في مجمله لفرنسا، ليس فقط كحيازة، أو كضمان مكتسب، وإنما كخزان لجميع حاجيات المتروبول"².

ورغم عدم اقتناع الحكومة الفرنسية برأي ليوطي، ورغم اتهامها له بأنه "لم يع خطورة الوضعية التي تعيشها أوروبا، نظرا لطموحاته في المغرب"³، فقد وافقت باريس على مقترحات المقيم العام، وهي الموافقة التي يمكن تفسيرها بعمق المشكل الذي لم يكن الاحتفاظ بالمغرب، الملحق حديثا، بمنظومة الاحتلال الفرنسي بأفريقيا، وإنما كان هو ضرورة المحافظة على النظام الاستعماري الفرنسي في مجمله.

كان ليوطي في عصيانه أوامر باريس، وفي ضغطه على حكومة بلاده للقبول بوجهة نظره، يقدم العديد من المبررات المستندة إلى خبرته، وقناعته بأن القبائل المغربية لن تنترد في استغلال أول فرصة تبدو لها في ظل الحرب. وقد جاءت معركة الهري ببلاد زيان في 13 غشت 1914 تصديقا لتحليلاته. إذ أصيبت القوات الفرنسية بهزيمة كبرى، تم القضاء فيها على فرقة عسكرية بكاملها، بقتل 33 ضابطا، و 600 جندي وفقدان العديد من الأسلحة والمعدات. إنها الهزيمة التي فرضت على

1- Lyautey P : Lyautey l'africain p 227

2- AMV : 3H361 , dépêche n° 130 CMC. Général Lyautey RG de France au Maroc à ministre de la guerre. Rabat 22 août 1914

3 - Ibid

ليوطي التصريح بالقول: "لا أعتقد أنه يوجد في تاريخنا الاستعماري مثال لتدمير هذه القوة، ومقتل كل هؤلاء الضباط، وضياح عتاد بهذه الأهمية".

لم تكن مسألة معاكسة أوامر الخارجية والدفاع، في التراجع ونقص الجنود لبعثهم نحو فرنسا فقط، بل إن ليوطي عاكس الأوامر كذلك في مسألة إرسال الجنود التونسيين والجزائريين إلى الوطن الأم، مقترحا بديلا عنهم، إرسال جنود مغاربة، تم تدريبهم من طرف ضباط عسكريين فرنسيين. فمرة أخرى، ورغم تحفظ الحكومة الفرنسية، واقتراحها إرسال الجنود المغاربة على الجزائر أو تونس بدل فرنسا، دافع ليوطي على أن "مسألة الجنود المغاربة هي مسألة معقدة، ومن مصلحة الجميع، أن يتوجه هؤلاء إلى فرنسا، لأن بقاءهم في المغرب يشكل خطرا حقيقيا". ودافع ضد إرسالهم إلى تونس أو الجزائر، بمنطق أنه لا يستطيع "ضمان الجنود المغاربة، ولا الكوم، في حالة عدم دمجهم داخل قوات موثوق بها"¹. كما دافع عن قدرات هؤلاء الجنود وكفاءاتهم، مراهنًا على الخدمات التي سيقدمونها لفرنسا، ومتعهدًا بهم "فرقة عسكرية ذات كفاءات عالية وانضباط حربي"².

ومثلما اقنع ليوطي حكومة بلاده في المرة الأولى، استطاع إقناعها ثانية بوجهة نظره، وكان من نتائج ما أقدم عليه، الزج بالمغرب في حرب أوربية إلى جانب فرنسا.

II – الزج بالسلطان

كان عدد جنود الاحتلال الفرنسي بالمغرب، غداة اتخاذ ليوطي قرار الاحتفاظ بالمغرب، ومساندة فرنسا في نفس الآن، حوالي 85 ألف جندي من بينهم 41 ألف جندي أوربي، و 17856 مغربي، ضمنهم الحرس السلطاني، والكل يؤطره ضباط عسكريون فرنسيون.

وبتاريخ 15 غشت 1947، أرسل ليوطي خمسة فيالق عسكرية، مكونة من جنود مغاربة نحو مدينة بوردو الفرنسية، حيث أقيم مركز خاص لاستقبالهم، وأسندت مهمة تأطيرهم والإشراف عليهم لليوطنان جبرات Gibrat، من منطلق كونه أقدم ضابط فرنسي احتك بالجنود المغاربة، وأشرف على تكوينهم. وبعد بوردو، التحق هؤلاء ب Chalon و Amiens قبل أن يلقي بهم في أثون المعارك.

والجديد في هذا المسار، وبعد ستة عشر يوما من خوض المعارك، توصل الجنود المغاربة برسالة من السلطان المولى يوسف، تبارك مشاركتهم في الحرب إلى جانب فرنسا، مفسرة الأمر بكون "المغرب مدين لفرنسا، ويكون مساعدتها في الحرب هو نوع من رد الجميل".

¹ Ibid

² - AMV : 3H 149. teleg n° 305G. Commissaire Résident général à cabinet militaire Paris 17 septembre 1914

لقد كانت الرسالة مفاجأة، وهو ما يستدعي التوقف عندها، وعند الشروط التي أملت على ليوطي ضرورة الاستعانة بها، إن لم نقل الاحتماء بها. لم يستشر المقيم العام ليوطي، عندما أقدم على اتخاذ قرار إرسال الجنود المغاربة إلى الجبهة الفرنسية بأوربا سلطان المغرب. ولم تعر الحكومة الفرنسية اهتماما للسلطان عندما كانت تناقش وضع المغرب وظروف الحرب مع مقيمها العام. ولم يطلع ليوطي السلطان بفحوى نقاشاته مع حكومة بلاده فكان المغزى واضحا، وهو تهميش السلطان، وعدم الحاجة إلى رأيه في النازلة. غير أن سير الأمور، والخوف من مستجدات قد تقلب الحساب، جعل ليوطي يتدارك تجاوزه السلطة التي كانت الوسيط بينه وبين المغاربة. ويعي الحاجة الطرفية والمستقبلية لمساندة القصر السلطاني. وإذا بحثنا عن بعض ما يكمن وراء هذه الحاجة، نجده في رغبة المقيم العام ليوطي في المحافظة -ولو شكليا- على صبغة الحماية التي حملها عقد 30 مارس 1912، ورغبته في ايهام المغاربة بأن قرار الزج بهم في الحرب العالمية الأولى، ليس قرارا فرنسيا فقط، وإنما كان قرارا بمباركة السلطان، الذي لا يمكن أن يتم أي شيء دونه.

ولتبرير هذه المسألة، وظفت عبارة رد الجميل، التي لاشك أنها كانت من أجل رد أي موقف من ألمانيا التي كانت تراقب سياسة فرنسا بالمغرب. لم يتدارك ليوطي بمبادرته المذكورة تجاوزه السلطان في البداية، ولم يمرر بها ما أراد فقط، بل أسس ببعض ما ترتب عنها، لعلاقة عسكرية جديدة بين المغرب وفرنسا. فقد فهمت الحكومة الفرنسية اللعبة، فاستحسن رئيس الجمهورية الرسالة السلطانية ورد عليها ببرقية للسلطان بدت هي الأخرى تداركية، شكر فيها السلطان "وقوفه إلى جانب فرنسا، ومساعدته في محنتها". وهي البرقية التي لم يفت ليوطي العمل على استثمارها، حيث روج لها بالنشر، وبالعمل على قراءتها في كل مساجد البلاد.

زادت الرسالة السلطانية من حماس الجنود المغاربة، في جبهة القتال، بشكل أثار إعجاب ضباطهم الفرنسيين، ودفعهم إلى الإشادة بشجاعتهم والثناء عليهم. لقد وصفوا أثناء القتال، والتعرض للنيران بأنهم "لم تتزعزع صفوفهم، ولم يظهر عليهم الضعف، ولم يحاول أي واحد منهم الفرار". كما تم الحديث عنهم بانبهار إثر معركة 5 شتبر التي مهدت لمعركة La Marne. والتي تعب فيها الأمان، وتراجعوا تاركين المراكز التي سبق أن احتلوها في يد المغاربة¹.

¹ - AMV : 5N515. Historique succinct des opérations de la brigade de chasseurs indigènes « troupes marocaines », du 15 août au 20 octobre 1914

كانت هذه الاستماتة في القتال من أجل فرنسا وراء التقرير الذي أرسله Millerand في العاشر من شهر شتنبر إلى الجنرال ليوطي، والمليء بعبارات الثناء على أولئك الجنود، من خلال وصفهم بأنهم كانوا "منتظمين في الدفاع عن مراكزهم، إلى حد التضحية، ومتملئين قساوة مناخ الشمال. ومقدمين الدليل القاطع على قيمتهم الحربية، وخصالهم التي وضعتهم في نفس صف أحسن قواتنا الإفريقية، وجعلهم يستحقون أن يحاربوا إلى جانب الجنود الفرنسيين"¹.

إن تراجع ك الحكومة الفرنسية، في قدرة الجندي المغربي، واعترافها باستحقاقه خوض الحرب على جانب الجندي الفرنسي، يتضمن انتصارا آخر لفكرة المقيم العام ليوطي، بإرسال جنود مغاربة إلى الجبهة الفرنسي، وهو في نفس الآن يؤسس لتبعية الجندي المغربي للمتروبول مباشرة ودمجه ضمن القوات الافريقية الفرنسية، دون اعتراف بأي خصوصية.

وإذا كانت شهادات الحكومة الفرنسية، معززة لآراء ليوطي، فإن ثمن تلك الآراء أداه الجنود المغاربة. فبين شهر غشت وشهر شتنبر 1914، لم يبق من أربعة آلاف جندي مغربي، أرسل إلى الجبهة الفرنسية سوى 2800². وهو الواقع الذي خلق لدى ليوطي الحاجة إلى رسالة سلطانية ثانية، تم توجيهها في 23 نونبر من طرف السلطان إلى ما تبقى من الجنود، مشيدة "شجاعتهم وبروح التضحية لديهم وبما ورثوه من ذلك عن أجدادهم".

ولم تكن أوضاع الحرب في الجبهة الأوربية دفاعا عن فرنسا هي السبب وراء الحاجة إلى تلك الرسالة، بل كان وراءها كذلك، هزيمة الفرنسيين في معركة الهري، وما تطلبه الأمر من تعمية.

ومثلما لقيت الرسالة الأولى ترحيبا من طرف رئيس الجمهورية، راسل وزير الدفاع السلطان بواسطة المقيم العام ليوطي، يشكره على مساندته فرنسا في محنتها. وطيلة سنوات الحرب العالمية الأولى، شارك المغاربة في أهم المعارك مثل: La Somme – Verdum- Chemin Des Dames.... والتي أوصلت في النهاية إلى تحقيق النصر وهزم ألمانيا وتزيين راية الفيالق المغربية بالأوسمة والشارات.

¹ - AMV :5N515. Historique succinct du 1 régiment marocain 1914-1917 .

² -Ibid

خاتمة :

زج ليوطي من خلال سياسته إزاء المغرب، بالبلد وأهله في حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل - كما يقال - وجند الجنود المغاربة لحوما بشرية لمدافع ألمانيا وحلفائها. ولتغطية وتبرير ما قام به، وحتى لا يكون مسؤولا عنه ظاهريا، دفع بالسلطان مولاي يوسف لمساندته. لقد جاء في إحدى رسائل هذا المقيم إلى وزير الدفاع أنه "منذ بداية الأزمة أبدى السلطان ولاء لا نظير له، وقدم لنا كل المساعدات اللازمة"¹. وجاء في تصريح نفس المقيم لجريدة Le Temps "إن موقف السلطان لم يتغير خلال سنوات الحرب فقد ظل صديقا لفرنسا".

لم يزج ليوطي بالمغرب والسلطان فقط في تلك الحرب، بل أسس لعلاقات عسكرية فرنسية - مغربية متضمنة الكثير من مظاهر التبعية، وشكلت الحرب العالمية الأولى مناسبة أخرى لتطبيق وتطوير تلك العلاقة، إلا أن التاريخ لا يمشي على رأسه دائما، فلا بد أن يصحح وضعه ليمشي على قدميه، وذلك أحد أسرار نجاح الحركة الوطنية في توظيف مشاركة المغاربة في الحرب العالمية الأولى من أجل المطالبة بالمقابل وهو منح البلاد استقلالها.

¹ - Pradier Pierre : L'Afrique du Nord et la guerre. Paris 1918. p 108-109